

اليوم الثلاثاء الموافق
7/10/20025

السنة الرابعة
الفصل السابع

تاريخ السودان المعاصر
المحاضرة التاسعة



ويقول كرومر إنه كان عظيم الرجاء في أن يقبل اللورد سالسبري هذه الفكرة التي اقترحها عليه . وقد قبلها الأخير من غير تردد ووافق بسرور علي انشاء (دولة مولدة) من طبيعة كان من المتوقع ان تثير دهشة علماء القانون الدولي . (نفس المصدر ص.539).
مما لا شك فيه أن النظام الذي اوجده كرومر واسماه بالدولة المولدة (Hybrid State) كان متوقعا أن يثير دهشة رجالات القانون الدولي لغرابته ولأنه بدعة في القانون الدولي غير مسبوقة .

هو عينه نظام الحكم الثنائي او ما عرف ب
(Condominium) الذي اعتمد في شرعيته علي
وثيقة اتفاق الحكم الثنائي بين الحكومتين
البريطانية والمصرية العثمانية بشأن ادارة
السودان في المستقبل . والذي تم التوقيع عليه في
19يناير1899م. والذي تبعه اتفاق لاحق في
10يوليو من ذات العام . وهذا تكون بريطانيا بعد
كل هذه المدة ان تبلغ غايتها بدون تعب او نصب
وان تضرب عصفورين بحجر احتلال مصر
والسودان في آن واحد تحت تسويغات ومبررات
نجحت في ان تمرر اجندتها من تحت الطاولة

في الواقع ومن خلال ما تمت الاشارة نلاحظ انه قد بدأ التفكير البريطاني الجاد والعملي في نوع الوضع السياسي الذي ينبغي ان يسود السودان منذ ان قررت الحكومة البريطانية استرجاع السودان فقامت بارسال حملة دنقلا دون استشارة الخديو ناهيك عن السلطات العثمانية . وكان وذلك في مارس (1896م) الامر الذي اثار استياء الخديو ومخاوف السلطات العثمانية واحتجاج السلطان العثماني علي عدم استئذانه باعتباره انه صاحب السيادة الشرعية علي البلاد . والذي تحكم الفرمانات علاقته مع الخديوية وان السودان جزء اصيل من السلطنة العثمانية لكن ذلك التحرك يؤكد على ان بريطانيا ترى ان وجودها في مصر مرتبط بالسودان

مما مضى يبدو ان تصرف بريطانيا الانفرادي في انفاذ حملة دنقلا قد ادخلها في مطبات الا ان بريطانيا بدهاء ومكر وخدعة سياسية خرجت من هذه المطبات باداعائها بانها لم تقم بعمل مخالف للفرمانات العثمانية التي تحكم العلاقة العثمانية الخديوية بحال من الاحوال . وانما تصرفها كان تنفيذا للفرمانات العثمانية لانها ارادات ان تسترد اراض خديوية عثمانية خرت عن العباءة الخديوية والعثمانية فارادت بريطانيا ان تضع الامور في نصايها وتردها الي حظيرة الخديوية نفسها . وهذه الاقاليم هي جزء من الخديوية بحكم الفرمانات العثمانية وقد خرجت عن طاعتها بسبب الثورة

ولما كان الامر يتعلق بالاستراتيجية البريطانية اعني غزو واحتلال السودان عن طريق اختلاق حجج ومبررات يمكن تمريرها على السلطان والخديو والمجتمع الدولي لا سيما على فرنسا وروسيا كان الانجليز هم انفسهم الذين تقدموا بهذا الحجة للرد علي تساؤلات واستفسار واحتجاج الباب العالي وكان ذلك عبارة عن تمهيد ستستخدمه بريطانيا فيما بعد لتقوية وتعزيز مبرراتها ومسوغاتها لغزو واحتلال السودان . وفي ذات الوقت الذي بعثوا بتلك المبررات والحجج الى السلطان العثماني لاسكاته طلبوا من الخديو ان يرد بذات الحجة و المنطق علي الباب العالي . وبهذه الكيفية تجاوزت بريطانيا هذه الازمة التي كادت ان تعصف بخطتها وتجاوزوا ذلك المطب

بيد ان الامر الذي لم يتوقعه البريطانيون هو ان
تلك الازمة قد تركت اثارا غير متوقعة لدي الانجليز
ونعني بها سيادة اعتقاد لدي المصريين بان السودان
بكامله سيعود مرة اخري الي الحكم المصري
العثماني تارة اخري مثلما كان قبل قيام الثورة
المهدوية وظنوا ظنا كاذبا انهم سينفردون بحكم
السودان كما كان الامر سابقا ولم يدركوا مخططات
بريطانية واستراتيجتها الرامية الى استخدامهم
كواجهة في المرحلة الاولى ثم التخلص منهم في المرحلة
الثانية

بيد ان هذا الاعتقاد وذلك الظن الكاذب
سرعان ما اصبح سرايا وتبدد وعصفت به
الرياح حين كشر البريطانيون عن انياهم
فارسلوا برقية صادمة وصريحة الي
الخديو وهو باوروبا جاء فيها بلاغ للخديو
بان لانجلترا حق الاشتراك في حكم
السودان بما ضحت به من رجال ومال .
وان كتشنر بالفعل قام برفع العلم
الانجليزي بجانب العلم المصري علي ام
درمان من باب فرض الامر الواقع . ويبدو
ان ذلك كان يشكل المرحلة الاولى من
المسرحية البريطانية ذات الفصول

وبهذه البرقية قد تم الكشف عن المستور وعن ما كانت تخفيه بريطانيا تحت الطاولة وتخطط له منذ فترة طويلة وبنفس طويل وعميق . وهنا يتضح للمراقب ان للانجليز خطة معينة كاملة الاركان ومدرسة في شكل حلقات كل حلقة تلتحم بالتي تليها في تسلسل متقن وان هناك استراتيجية ينوون اتباعها في السودان وفق حساباتهم الخاصة . وهي بالتأكيد تتعارض تماما جملة وتفصيلا مع ما ساد من اعتقاد لدى المصريين بان مصر وحدها هي ستكون صاحبة الحكم منفردة في السودان الذي استعادته بمعاونة بريطانيا بعد القضاء علي التمرد الذي حدث فيه واخماد ثورته. بيد ان الصورة الحقيقية كانت مقلوبة فبريطانيا وفق استراتيجيتها استخدمت مصر كأداة مرحلية من اجل خداع السلطنة العثمانية وروسيا وفرنسا و الخديوية لبلوغ غايتها و قد نجحت في ذلك بامتياز

وعلى صعيد اخر فان رفع العلمين في آن واحد
من قبل كتشنر قائد الحملة البريطانية المصرية
على السودان يؤكد على التخطيط المسبق من
قبل بريطانيا لاحتلال السودان والانفراد بحكمه
ومن جانب اخر فان فيه اشارة واضحة لا
تحتاج الي تفكير عميق الي نوع الحكم الذي يرمي
الانجليز الي اقامته في السودان في المرحلة الاولى
من خطتهم . وكل ذلك قد تم من وراء ظهر كل من
السلطنة العثمانية والخيوية التي كانت مغيبة
الوعي تماما او تحت مطرقة التهديد



وقد ينشأ هنا سؤال منطقي مؤداه كيف تولدت فكرة رفع العلمين جنباً الى جنب في ام درمان ومتي ؟ معرفة ذلك بالتحديد ستكشف لنا عن اصول النظام الذي تقرر لدي البريطانيين اخر الأمر ان يكون الصيغة التي سيقنعون بها المجتمع الدولي للحكم في السودان ومن خلال تلك الصيغة المبتدعة في القانون الدولي وفي الواقع السياسي سيتثنى لهم فرض هيمنتهم التامة على السودان تدريجيا وفق خطتهم البعيدة المدى والتي دخلت حيز التنفيذ والتي اصبحت في فصولها الاخيرة ولمساتها الفنية قبل الاخيرة



في اثناء تأهب السردار كتشنر للزحف من بربر الي ام درمان
ابلغه اللورد سالسبري في 3 يونيو 1898م بان السلطان
العثماني كتب الي لندن بما يفيد ان له سلطة ادبية وفنية
علي الخديو وهي صورة من صور الاعتراض على التحرك
البريطاني دون اذنه وقد رأى ذلك تغولا على سلطانه وحقوقه
الدستورية واملاك الدولة العثمانية . وعلى صعيد اخر
يعتقد رئيس الوزراء البريطاني سالسبري ان الفرنسيين هم
الذين يحرضون السلطان للتمسك بهذه الحقوق حيث ان
فرنسا كانت مدركة للخطط والتحركات البريطانية وابعادها

ولذلك فسقوطها يترتب عليه دخول المهديّة باسرها من وادي حلفا الي ودلاي في حوزة القوات الي استولت علي هذه العاصمة، وهي عندئذ قوات مؤلفة من جيشين يتولي القيادة عليها السردار بحكم مركزه الشخصي كما فعل دوق مارلبورن Marlborough (اثناء حروب الوراثة الاسبانية (1704_1714م). عندما كان يقود جيشين بريطاني والماني دون ان ينشأ من ذلك تجاوز علي الحقوق المستقلة التي للحكومات المستقلة .



ولهذا كان من رأي سالسبري ان يحذر البريطانيون من الاعتراف
بالحقوق المصرية وحدها في الجهات التي يصل اليها الزحف جنوباً لان
ذلك سيبطل مفعول الخطة البريطانية الرامية الى احتلال السودان
احتلالاً تاماً والانفراد به في نهاية الامر ويسأل كرومر في الوقت نفسه
اذا لم يكن من الحكمة عند الاستيلاء علي الخرطوم رفع العلمين
البريطاني والمصري جنباً الى جنب، ففي الامكان أن تعود الخرطوم
عاصمة الدولة المهدوية الى سابق عهدها قبل الثورة المهدوية وينفرد
المصريون بحكم السودان وبالتالي تكون بريطانيا قد ضاعت فرصة
احتلال السودان والانفراد بحكمه



ويرى كرومر اذا تم رفع العلمين في الخرطوم عند نجاح الغزو ودخول السودان ان ذلك كفيل بزول العقبات الدبلوماسية المتوقعة من الوجود البريطاني في السودان وسيمهد الطريق امام بريطانيا لانزال استراتيجيتها على ارض الواقع من غير اعتراضات . ولذلك يدعو سالسبري كرومر لان يفكر جديا في هذه المسألة وبكيفية لا تخرج الحكومة البريطانية امام المجتمع الدولي . وهذا في تقديري نوع من الاستباق للمستجدات وتحضير الحجج والدفعات التي يمكن ان تحميها من الهجوم من قبل الغرماء في الساحة الدولية وفي الوقت تعزز بها الحكومة البريطانية دعاوها بحق المشاركة في حكم السودان مستقبلا كشريك نتيجة ما ساهمت به من مال ورجال وخبرات وتكتيك . الى ان تتمكن من التخلص من الشريك والانفراد بحكم السودان

ذلك التصرف واتخاذ الاحتياطات اللازمة
لتنفيذ الخطط والاستراتيجيات البريطانية ازاء
السودان والمتابعة اللصيقة من قبل رئيس
الوزراء واستباق الاحداث وتحضير الحلول يدل
ذلك علي المكر الانجليزي وانهم في سبيل تحقيق
مصالحهم واستراتيجياتهم يستخدمون المخزون
التاريخي بذكاء واقتدار . كما انهم يتمتعون
بالقدرة علي الاستدعاء والتحليل والتوظيف
والاستثمار في الوقت المناسب لكل المخزون
التاريخي الاقليمي والدولي لصالحهم

في البداية يلاحظ ان كل الذي دار بين
كتشنر وسالسبري وكرومر كان قبل واقعة
ام درمان. ومن الغريب ان كرومر في رده لم
يكن متفقا مع طرح سالسبري وابدي
تشككه لاول وهلة في صلاحية الطرح
والفكرة ولكنه في النهاية وافق عليها حيث
انها كانت تشكل الطرح الممكن التنفيذ ولا
يوجد بديل اخر لها في الافق

. ويلاحظ ان كرومر بعد اسبوع وصل الى قناعة بصوابية الفكرة والطرح الذي قدمه سالسبري فعاد كرومر وكتب الي سالسبري في 11 يونيو 1898م انه يفكر في (فكرة العلمين) وأشار الي انه كلما زاد تفكيره في هذه المسألة ، كلما زاد اقتناعه بها . ولم يقف به الامر عند حد الاقتناع بالفكرة والطرح بل ذهب الى ابعد من ذلك وقاده ذلك الاقتناع الي ان يضع في 15 يونيو 1898 مذكرة (Memorandum) تضمنت بعض المبادئ والافكار والمقترحات التي مهدت في نهاية المطاف لوضع الاتفاق (الوفاق) الثنائي فيما بعد ان اخذت تلك المبادئ والمقترحات قدراً وفياً من وافياً من النقاش.

وتظهر خطورة واهمية تلك المذكرة انها تطرقت بصورة مباشرة الى اجراءات التنفيذ وهي ذات المذكرة التي تضمنت اقتراح كرومر بارسال حملتين احدهما علي النيل الابيض بقيادة السردار نفسه والاخري علي النيل الازرق لمواجهة الخطر المزدوج من زحف الفرنسيين علي النيل من جهة بحر الغزال ومن زحف الاحباش من جهة النيل الازرق من ناحية السوبات ولعل هذه الجزئية الاخيرة هي محاولة استباقية لاحباط تحرك التحالف الحبشي الفرنسي حيث كانت فرنسا تهدف الى ربط مستعمراتها في غرب افريقيا بمستعمراتها في شرق القارة وذلك يتقاطع مع مشروع بريطانيا الرامي الى ربط مستعمراتها في الشمال بمستعمراتها في جنوب القارة



السؤال ما هي اهم الافكار والمقترحات التي تضمنتها مذكرة اللورد كرومر ؟

يلاحظ ان اهم ما تناولته مذكرة كرومر عدة مواضيع

□ اولها : التحذيرات الضرورية والمهمة التي يجب ان تكون موضع

الاعتبار والنظر عند تقرير الوضع المنتظر للسودان .

□ وثانيها :الصعوبات التي قد يثيرها نوع الوضع الذي سيستقر عليه رأي

الحكومة البريطانية .لإقامته في مواجهة الخديو والسلطنة العثمانية والمجتمع

الدولي على وجه الخصوص فرنسا وروسيا اللذان يقفان لبريطانيا بالمرصاد

ويراقبان تحركاتها بحذر شديد

وثالثها: نوع الوضع المنتظر نفسه والى اى مدى يمكن ان يكون مقبولا على الصعيد الخديوي في مصر والعثماني في اسطنبول وعلى الصعيد الدولي . وحين شرعت المذكرة في معالجة هذين المواضيع برزت حقيقة مهمة وهي ان الاحتلال البريطاني لمصر قد استقر الرأي البريطاني علي ان تطول مدته ولاجل غير مسمى وان يتم نسيان ما قطعه بريطانيا من وعود للمجتمع الدولي او لخديو مصر او السلطان العثماني وان بريطانيا ستمضي قدما في تنفيذ استراتيجيتها من غير التفات لاي احتجاج او اعتراض من اي جهة كانت بعد ان تثبت اقدامها في مصر وامنت وجودها

ولما أصبح قرار بريطانيا البقاء في مصر الى اجل غير مسمى وغير مرتبط
بأي وعد او فترة محددة وامست تلك حقيقة أصبح لامناص من ان يتأثر
بها التفكير في اقرار نوع الوضع الذي يجب اختياره للسودان في
المستقبل بعد غزوه وازاحة الحكم الوطني المهدوي واحتلاله . اذ يستحيل
اغفال الارتباط بين السياسة السودانية فيما يتعلق بالسودان
والسياسة المصرية فيما يتعلق بمصر . وهو ارتباط يجعل السياسة
البريطانية في كلا البلدين متاثرة بالسياسية في البلد الاخر بلا شك .

ورابعها : من ثم حذر كرومر في مذكرته من ان يترتب علي الوضع الذي يتم اختياره في السودان ان تتحمل الخزينة المصرية نفقات طائلة نتيجة ذلك الوضع بحال من الاحوال. ويرى كرومر ان الاصلاح المالي في مصر هو ضروري لنشر الرخاء المادي وهو الوسيلة الوحيدة لاستمالة السواد الاعظم من المصريين والتغلب علي عواطف الكراهية والتعصب الديني ضد الوجود البريطاني في مصر واذا نجح الوجود البريطاني في ذلك